الأفعال الكلامية ودورها الإنجازي والتأثيري في عملية التخاطب

إعـــداد

أ. دعاء عبد الله محمد عبد المنعم الجابي

باحثة ماجستير

كلية الآداب-جامعة الفيوم

تُعتبر الأفعال الكلامية من أهم ركائز الملكة التبليغية الضرورية في تعلم اللغة، فالحديثُ باللغة ما هو إلّا تحقيق لأفعال كلاميةٍ، وهي الفكرة الأولى التي نشأت منها اللسانيات التداولية، وأهم مرجعٍ من مراجعها..، ويمكن تعريف الفعل الكلامي بأنه: "كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، ويُعدّ نشاطًا ماديًّا نحويا يتوسل أفعالًا قولية لتحقيق أغراض إنجازية، وغايات تأثيرية تخصُّ ردود أفعال المتلقي، ومن ثمّ فهو فعل يطمح أنْ يكون فعلًا تأثيريًّا؛ أي يطمح إلىٰ أنْ يكونَ ذا تأثيرٍ في المخاطب اجتماعيًّا أو مؤسساتيًّا، ومن ثمّ إنجاز شيء ما"(١).

إذًا لقد أصبح مفهوم الفعل الكلامي ركيزةً أساسيةً في كلِّ الأعمال التداولية، والمؤسس الحقيقي لهذه النظرية هو الفيلسوف الإنجليزي "أوستين" فهو يرى أنّ "وظيفة اللغة الأساسية ليست إيصال المعلومات والتعبير عن الأفكار، إنّما هي مؤسسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية"(٢).

ولا تخرج نظرية أفعال الكلام في الغالب عن ثلاثة مرام هي:

١- يعدُّ فعل التواصل تحويلًا وتعديلًا في الآن نفسه لعلاقة المتكلم بالسامع.

٢- لا توجد وسيلة للكلام عن المعنى دونَ الكلام في الوقت نفسه عن الهدف.

٣- كل فعل تواصلي ينتج آثارًا مختلفة بمجرد وجود تعبير كتابي أو شفوي(٣).

ولقد مرت هذه النظرية بمرحلتين أساستين هما: "مرحلة التأسيس عند أوستن J.L.Austin، ومرحلة النضح والضبط المنهجي عند تلميذه سيرل J.R serarle وكلاهما من فلاسفة أكسفورد (٤) .

ولقد تأثر أوستن بفنغنشتاين؛ إذ نراه قد سلك طريق فنغنشتاين فقسّم الأقوالَ إلى نوعين وهي: "نوع يُستعمل لوصف الكون أو الواقع وهو ما يمكن الحكم عليه بالصدق أو الكذب، ونوع آخر لا يصف الكون ولا يمكن الحكم عليه بمعيار التوفيق أو الإخفاق"(٥).

ولقد صنف أوستن الأفعال الكلامية تبعًا لقوة الفعل أو ما يُسمى بقوتها الإنجازية على خمسة ضروب، هي:

١- أفعال الأحكام والقرارات القضائية: ويختصّ ذلك النوع بكونه ناتجًا عن إصدار حكم في المحكمة كما يدُل على ذلك اسم هذه الأحكام، سواء أكان هذا الحكم هيئة قضائية أم من حكم تختاره الأطراف أم من حكم (في الملعب مثلًا) غير أنه ليس من الضروري أن تكون هذه القرارات نهائية، فقد يكون الحكم مثلًا تقديريًّا أو علىٰ صورة رأي أو تقييمًا، وفي جميع هذه الصور يتعلق الأمر بإصدار حكمٍ حولَ شيء ما، واقعيًّا كان أم قيمة ولكن الشيء المحكوم فيه قد يكون لأسباب مختلفة غير متأكد تمام التأكيد.

٢- أفعال الممارسة التشريعية: وتكون متعلقة بممارسة السلطة والقانون والنفوذ، وأمثلة ذلك التعيين في المناصب والانتخابات وإصدار الأوامر التفسيرية في المذكرات، وإعطاء التوجيهات التنفيذية القريبة من النصح والتحذير وغيرها.

٣- ضروب الإباحة: وفيه يلتزمُ الإنسانُ أنْ يفعل شيئًا ما، ومن نماذجه؛ إعطاء الوعد أو التكفل والضمان والتعهد، وقد يندرج في هذا الباب التصريع وإعلان

النية والقصد، ويدخل التصريح والقصد في الوعد، وهناك أمورٌ أخرى تجتمع تحت خطبة الزواج أو التواعد به والمناصرة لرأي ومن الواضح أن هناك علاقات بين القرارات التشريعية والممارسات التشريعية.

٤- الأوضاع السلوكية: ويختص ذلك النوع بمجموعة منتشرة لا يمكن حصر أطرافها بسهولة، ولكنّها تندرج تحت باب السلوك والأعراف الاجتماعية ومثالها؛ الاعتذارات والتهاني والتعازي، والقسم وأنواع السباب والقذف والتحدي...

٥- الصنف الأخير: المعروضات الموصوفة: وتعدّ أصعبها تعريفًا، ولكنها تبين كيف أنّ العبارات المُتلفظ بها تجري مجرى الاحتجاج والنقاش كما تكشف كيف أننا نستخدم الألفاظ بوجه عام، ويصلح هذا الصنف لطريقة العرض، وأمثلة ذلك: أجيب وأعارض وأحتج، ولكن.. وأوضح وأفترض، وأضع كمسلمة..." (٦).

وعلى الرغم من أنّ أعمال أوستن كانت بداية حقيقيةً للدرس التداولي فإنّها لم تصل إلى النضج والكمال، فقد أشار أوستن إلى "أنّ هذه المجموعات كلها متداخلة؛ إذ يتدخل السياق أحيانًا ليجعلَ من فعل الحكمِ فعلَ ممارسةٍ أو العكس، وهكذا في جميع المجموعات، والمُلاحظ – أيضًا- أنّ هذا التقسيم لم يحظَ بالإجماع، فسيرل لم يقتنعْ بهذا التصنيفِ نظرًا للغموض الذي وقع فيه أوستن؛ لأنّه لم يحدد معالم كل مجموعة، ومن مآخذ التصنيف الأوستيني أنّه يفتقرُ إلىٰ أُسس ثابتة وواضحة ما عدا المجموعة الخامسة التي استعملَ فيها مفهوم الغاية الكلامية كقاعدة لتحديدها: أفعال الممارسة التي تبدو محددة علىٰ الأقل بمفهوم ممارسة السلطة..."(٧).

وعليه فقد أعاد سيرل النظر في التصنيف الأوستني من خلال معايير الملاءمة التي طوّرها عن أوستين، فوضعَ أربعةَ شروط كانت في الأصل ستةً، كُثّفتْ إلى أربعة أنماط قاعدية هي:

١- شروط المحتوى القضوي: وهو المعنىٰ الأصلي للقضية والمرجع الأساسي.

٢- الشرط التمهيدي: ويتحققُ هذا الشرطُ إذا كان المتكلم قادرًا على إنجاز الفعل.

٣- شرط الإخلاص ويتحققُ حينما يكون المتكلمُ مخلصًا في أداء الفعلِ.

٤- الشرط الأساسي: ويتحقق حينما يكون المرسلُ قادرًا على التأثير في المُتلقي [٨].

ولقد قسّم سيرل الأفعال الإنجازية إلى خمسة أصناف أيضًا:

١- الإخباريات : والغرض الإنجازي منها هو نقل المتكلم واقعة ما وذلك من خلال قضية يعبر بها عن هذه الواقعةِ، وأفعال هذا الصنف كلها تحتمل الصدق والكذب، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، ويتضمن هذا الصنف معظم أفعال الإيضاح عند أوستن وكثيرًا من أفعال الأحكام.

٢- التوجيهات: وغرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المُخاطب إلىٰ فعل شيء ما، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها يتمثلُ في الإرادة أو الرغبة الصادقة، والمحتوى القضوي فيها هو دائمًا فعل السامع شيئًا في المستقبل، ويدخل في هذا الصنف الاستفهام والأمر والرجاء والاستعطاف والتشجيع والدعوة والإذن...

٣- الالتزاميات: غرضها الإنجازي هو التزام المتكلم، فهي ترمي إلىٰ غرض أنْ يلتزمَ المتكلم بفعل مستقبلي، واتجاه المطابقة في هذه الأفعال من العالم إلى الكلماتِ، وشرط الإخلاص هو القصد (ntention) والمحتوى القضوي فيها دائمًا فعل المتكلم شيئًا في المستقبل، مثل الوعد، التهديد، والإعلان...

وظاهر أن اتجاه المطابقة في الالتزاميات والتوجيهات واحد، لكن هذا لا يسوغ ضمها في قسم واحد لسببين: أحدهما؛ أنّ المرجعَ في الالتزاميات هو المتكلم، أمّا في التوجيهات فهو المخاطب، والثاني؛ أنّ المتكلم في الالتزاميات لا يحاول التأثيرَ في السامع، أما في التوجيهات يحاول التأثير فيه.

٤- التعبيريات: غرضُها الإنجازي هو التعبير عن الموقفِ النفسي تعبيرًا يتوافر فيه شرط الإخلاص، فالغرضُ هُنا أنْ يعبرَ المتكلمُ عن أحوالِه الداخلية في الكلامِ؛ لذا يغيب التوافق بين العالم والكلمات، فكلُّ ما هو مطلوب فيها هو الإخلاص

في التعبير عن القضية ويدخل في هذا الصنف أفعال الشكرِ والتهنئة والاعتذار والتعزية والترحيب.

٥- الإعلانيات: غرضها الإنجازي هو الإعلان، فهي تنجز من خلال الكلام – فقط– وقائع جديدة في العالم؛ لذا ينشأ هُنا توافق بين العالم والكلمات، إذًا أداؤها الناجح في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، فإذا أديتُ فعل إعلان الحرب أداءً ناجحًا فالحرب مُعلنة، وأهم ما يميز هذا الصنف من الأفعال الإنجازية عن غيرِها أنّها تُحدث تغييرًا في الوضع القائم، فضلًا عن أنّها تقتضي عُرفًا غير لغوي، واتجاه هذا الصنف قد يكون من الكلمات إلىٰ العالم ومن العالم إلىٰ الكلمات، ولا يحتاج إلى شرط الإخلاص"(٩).

ونلاحظ هُنا أنَّ هذا التصنيف يقوم علىٰ محور مهمٍّ وهو؛ محور العلاقة بين اللغة والعالم الذي ينتظم بناءً عليه كل ما يُعدّ فعلًا كلاميًّا بوجهٍ عام.

وعلى الرغم مما قدّمه سيرل فإن منهجه لم ينجُ من الانتقادات وأهمها: "تلك التي وجهَها وندر لايش وريكاناتي إذ يرى وندر لايش وريكاناتي أنّ أفعالَ الوعد مثلًا لا تُشكل نمطًا كُليًّا لأفعال الكلام، وإنّما يجب اعتبارها مجرد استجابات لأفعال التوجيه؛ فسيرل يعتبر أنَّ الاستفهام مثلًا هو جزء من أفعال التوجيه، وبما أن الاستفهام من الناحية النحوية نجده معلمًا أو موسومًا، فإنه لا بد أنْ يُشكلَ بذاته فعلًا كلاميًّا مُستقلًّا"(١٠).

وقد تتداخل هذه التصنيفات والسببُ في ذلكَ هو السياقُ؛ "إذ يتدخل السياق أحيانًا ليجعلَ من فعل الحكم فعل ممارسة، أو العكس، وهكذا في جميع المجموعات، كما أنَّ هذا التقسيم لم يحظَ بإجماع الباحثين في الحقل التداولي، فالأفعال الكلامية أفعال كثيرة يستحيل حصرها في مجموعات تصنيفية محددة"(١١).

ولقد خطا أُوستن خُطوةً واسعةً في التمييز بين الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة أو ما تُسمىٰ بالحِرفية وغير الحِرفية، فقد برعَ في إعادة بناء الخطوات الضرورية لإنتاج فعل إنجازي أَولىٰ من فعل إنجازي حِرفي؛ فالأفعالُ المباشرةُ هي

التي تطابق قوتها الإنجازية مُراد المتكلم، والأفعالُ غير المباشرةِ هي التي تُخالِفُ قوتها الإنجازية مراد المتكلِم.

ولا تخرج هذه الأصنافُ من الأفعال الكلامية عن "كونها أعمالًا إنشائيةً ماعدا الصنف الأول–التقريرات–، تندرجُ في مسترسلٍ واحد من القوىٰ المقصودة بالقول التي تتميز بكونها تُحدث ما لا وجود له في الخارج، وتكون مستوفاة ناجحةً أو فاشلةً بحسب صدق النية والإرادة والقصدِ ومُطابقة المقام لمُقتضىٰ الحال، وتختلف من حيثُ القوة، ونمط الإنجاز باختلاف المقامات والإرادات والمقاصد المخصوصة المناسبة لخصوصيات المتخاطبين..."(١٢).

ويمكننا القولُ هُنا: إنَّ القصدَ هو الذي يصنعُ القوةَ الإنجازية، فالمتكلمُ قبل نطقِه يكون قاصدًا لمعنىٰ إنجازي مُعين مستمد من الإنجاز الأول، ويتحدد من خلال سياق المقام، وبِناءً على ذلك فإن "الفعل الإنجازي غير المباشر بنوعيه مُحول عن الفعل الإنجازي المباشر، ومن ثَمّ فإنّ الفعل الإنجازي غير المباشر يتضمن الفعل الإنجازي المباشر، ولا ينعكس"(١٣).

وسوف أقومُ هنا بتحليلِ مجموعة من النماذج الشعرية – وِفق تصنيف سيرل– التي تحتوي علىٰ الإخباريات، التوجيهات، الالتزاميات، التعبيريات، الإعلانيات، النوع الأول وفق تصنيف سيرل:

أولًا: الأفعال الدالة على الإخباريات: ومن أمثلة ذلك النوع من الأفعال الكلامية قول أبي تمام يمدح المعتصم بالله، ويذكر أمر الأفشين:

هَذَا النَّبيُّ وكـانَ صَفْوَةَ رَبـهِ ... مِنْ بينِ بـادٍ في الأنـامِ وقارِ
قدْ خصَ منْ أهلِ النفاقِ عصابةً ... وهمُ أشـدُّ أذًى منَ الكـفار
واختـارَ منْ سعدٍ لعينِ بني أبي ... سَـرْحٍ لِوَحْي الله غَيْرَ خِيَـارِ
حتَّى استضاءَ بشعلةٍ السورِ التي ... رفعـتْ لهُ سجفًا عنِ الأسرارِ
والهاشـميونَ استقلـتْ عيرهمُ ... مِنْ كَرْبَـلَاءَ بأَثْقَلِ الأَوْتـارِ
فشفاهمُ المختارُ منـهُ ولم يكنْ ... في دينـهِ المختـارُ بالمختـارِ

حتَّى إذا انكشفَتْ سَرائِرُه اغتَدَوْا منـهُ براءَ السمعِ والأبصـارِ
ما كانَ لولا فحشُ غدرة خيذر ليكونَ في الإسلام عـامُ فجارِ
ما زالَ سرُّ الكفرِ بينَ ضلوعهِ حتَّى اصطلَى سِرَّ الزنادِ الوَارِي
نـارًا يُساوِرُ جِسْمَهُ مِنْ حَرها لهبٌ كما عصفرتَ شقَّ إزارِ(١٤)

إنَّ الأفعالَ الكلامية هُنا تحملُ قوةً إنجازية إخبارية تُعبرُ عن حادثة مهمةٍ؛ ألا وهي مقتل الأفشين، والتي تكشف في الوقت ذاته عن قصدية المرسل المتمثلة في محاولته إظهار الأسباب أو المبررات التي جعلت ممدوحه –المعتصم بالله– يقتل الأفشين، والمُلاحَظ هنا أنَّ المرسل تعمَّد استخدام الأسلوب المباشر، حتّىٰ لا يترك مجالًا للمُتلقي لإبداء تآويل أُخرى، أو حتى لا يقع تحتَ طاولة الفهم الخاطئ، فاختار أبو تمام ألفاظًا بعينها مثل: "بني، وطد، شق، نحا، خص، اختار، استضاء، رفعت، استلقت، فشفاهم، لم يكن، انكشفت، ليكون، مازال، اصطلىٰ، يساور، عصفرت، شقَّ ".

لتُخدم أغراضَه ومقاصده، وقد جاء بعضها مثبتًا والبعضُ الآخر منفيًّا، فحاول بواسطة هذه الوسائل اللُّغوية الكشف عن سر مقتل الأفشين، الذي يتمثل في كفرِه ونفاقه وخروجه عن مِلة الإسلام، ولقد ربط أبو تمام بين هذه الحادثة وبين حادثة تاريخية أخرى مشابهة لها حدثتْ في عهد الرسول – صلىٰ الله عليه وسلم–؛ ليثبت أن ذلك النوع من الحوادث ليس بجديد علىٰ المسلمين، فلقد مروا بحوادث أخرى مشابهة، وهذا إنْ دلّ فإنّما يدلُ على قدرة أبي تمام الموسوعية، ومعرفته الواسعة بتاريخ الإسلام، فالمقصدُ من الفعل الإنجازي (قدْ خصَّ) والفعل هنا بصيغة الماضي ليفيد الثبوت، "وقد" قبله تفيد التحقيق، أن الله قد اختصَّ أو اصطفىٰ لكتابة وحيه عصابة، هذه العصابة كانت أهل النفاق، منهم سعد ابن أبي السرح.

وكذلك حدث للهاشميين مثلما حدث مع الرسول– صلىٰ الله عليه وسلم– حينما اختاروا المختار بن أبي عُبيد للإدراك بثأر آل النبي – صلى الله عليه وسلم– وأعانوه، حتَّىٰ إذا ما انكشف لهم نفاقه – أيضًا– تبرءوا منه، وبهذا الاستدلال

التاريخي الذي جاء في صيغة الإخبار استطاع أبو تمام أنْ يواسي ممدوحه الذي أزعجه أن يكون مصطفاه، وبنيان دولته –الأفشين– منافقًا، فهذا الأمر ليس بجديد ولا طارئ عليك، بل حدث مع أشرف الخلق–النبي وصحابته–.

ولقد نتج عن الفعل الإخباري (مكرًا بني– وطد الأساس على شفير هار– شق ضميره عن مستكن الكفر) فعل تأثيري من قِبل هذا الممدوح (انثنىٰ– اصطلىٰ– سر الزناد الواري– يساور جسمه حرها) فكان صلبك إياه ثم إحراقه على الجذع جزاء ما فعل، نافق وكفر (فعل إنجازي إخباري) فقتلته وأحرقته (فعل تأثيري)، ولقد ختم أبو تمام حديثه عن هذا المنافق بفعل كلامي شديد وقوي (ما زال سر الكفر بين ضلوعه) أي: إنه لم يتبْ ويتطهر من هذا الكفر، بل أصرَّ عليه حتى النهاية، فاستحق هذه العاقبةَ الوخيمةَ.

ثانيًا: أفعال القرارات:

ومن نماذجها في شعر أبي تمام التكسب، قوله:

فواللهِ لو لمْ يلبسِ الدهرَ فعله لأفسدتِ الماءَ القراح معايبُه
فيا أيها الساري اسرِ غير محاذرٍ جِنان ظلام أو ردى أنت هائبُه
فقد بث عبد الله خوف انتقامه على الليل حتى ما تدب عقاربُه

إلىٰ قوله:

ويا أيها الساعي ليدرك شأوَه تزحزحْ قصيًا أسوأ الظن كاذبُه
بحسبكَ من نَيل المناقبِ أن ترى عليمًا بأن ليست تُنال مناقبُه(١٥).

لقد استخدم المرسل هنا أفعال طلب مباشرة مثل: " اسر، تزحزح"، فأبو تمام يطلب من متلقٍ افتراضي أن يسير دون خوف أو حذر؛ لأن ممدوحه –عبد الله بن أبي طاهر– منع الدهر عواديه، فلم يعدْ هناك داعٍ للخوف طالما أن هذا الممدوح موجود

يضمن له الأمن، فانتهج أبو تمام الأسلوب التوجيهي المباشر؛ لأنه أراد أن يعبر عن مناقب هذا الممدوح بشكل مباشر، وهنا يتحقق فعل النصح؛ لأن المرسل عبّر عن خطابه بمبررات كافية للتأثير على المرسل إليه.

ثالثًا: الإعلانيات:

ومن أمثلتها التي وردت في شعر أبي تمام قوله:

ولكنني لمْ أحو وفراً مجمعاً فَفُزْتُ بـهِ إلاَّ بشَمْلٍ مُبَدَّدِ

ولمْ تعطني الأيامُ نوماً مسكناً أَلَذُّ بـهِ إلاَّ بنَوْمٍ مُشَرَّدِ

وطولُ مقامِ المرءِ في الحي مخلقُ لديباجتيهِ فاغتربَ تتجددِ

فإني رأيْتُ الشَّمسَ زيدتْ مَحَبَّةً إلى النَّاس أَن ليْسَتْ عليهمْ بِسرْمَدِ(١٦)

يتوجه أبو تمام بخطاب توجيهي جاء بصيغة الأمر إلى متلقٍ افتراضي، وذلك في قوله "فاغترب" قوته الإنجازية هي "النصح"، أمّا غرضُه المتضمن في القول هو "الاستعطاف" فلقد أعلن المرسل هنا عن سفره الدائم واغترابه، فعللَ له أولًا، حيثُ أنّه فقدَ الأهلَ والأحباب، فلم يعدْ يحظى بشمل اجتماعي، ولهذا السبب قدْ سلبته الأيامُ النومَ الهانئ، فلم تمنْ عليه إلّا بنوم مُشردٍ؛ لذا أعلن عن اغترابه الدائم والذي يعدُّ سمةً من سمات التجديد، وقد ألحق بالبيت حكمةً تبرر قصده الصريح هنا وهي؛ أنه لولا غياب الشمس وعودتها من جديد كل صباح ما كان لها قيمة عند الناس؛ إذ إنّ البشر بطبيعتهم يميلون إلى التجديد، يمقتون كل ما هو دائم؛ لأنه

يصيبهم بالرتابة والملل، لأجل هذا أعلنَ المرسل عن اغترابه الدائم الذي يُشعره بالتجدد، مما يزيده محبة في قلوب الآخرين.

ولقد عدّد أبو تمام أفعال الإيضاح هنا ونوّع في أزمنتها، فاشتملت على (الماضي، المضارع، الأمر) كما هو واضح في الجدول التالي:

صيغة الماضي	صيغة المضارع	صيغة الأمر
فزت	أحو	–
–	تعطني	–
–	ألذ	–
–	–	فاغترب
رأيت	–	–
زيدت	–	–

فتساوى حضور الفعل الماضي بحضور الفعل المضارع؛ إذ جاء كل منهما بمجموع ثلاثة أفعال، بينما كان حضور الفعل الأمر ضئيلًا، فورد بفعلٍ واحدٍ فقط، مما يدل على براعة المرسل في استخدام التقنيات التداولية، ليحيل إلى وجهة نظر بعينها، وهي أن أفعال الماضي تفيد تحقيق وثبوت أفعال بعينها، ترتب عليها أفعال المضارع أو الحاضر.

رابعًا: التعبيريات:

ومن نماذجها في شعر أبي تمام:

يقول في قصيدة يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات ويعاتبه:

لهانَ علينا أن نقـولَ وتفعـلا ... ونَذكُرَ بعضَ الفَضْلِ عنكَ وتُفْضِلا
أَبَا جَعْفرٍ أَجْرَيْـتَ في كل تَلْعَةٍ ... لنا جعفراً من فيض كفيكَ سلسلا
فكَمْ قَدْ أثرنا مِنْ نَوالِكَ مَعْدِنـاً ... وكـمْ قدْ بنينا في ظلالكَ معقلا !(١٧)

وقوله في نفس القصيدة:

أكنتم تحسبون قتـال قومـي كأكلكم الغفايا والهيبـدا؟
لئن هممي أوجدنني في تقلبي مـآلا لقد أفقدتني منك موئلا
وإن رمت أمرًا مدبرالوجه إنني سأترك حظًا في فنائك مقبلا

إلى قوله:

على أن إفراطَ الحياءِ استمالني إليك ولمَ أعدِلْ بعرْضَيَ مَعْدِلا
فثَّقلتُ بالتخفيفِ عنكَ وبعضهمْ يُخفِّفُ في الحاجاتِ حتى يُثقِّلا![١٨]

في هذه الأبيات تعبير عن حالة انفعالية للمتكلم يعبر فيها عن محبته وإخلاصه لذلك الممدوح، وهو في الوقت ذاته يلقي بلومه وعتبه عليه...

فبدأ بمدح الممدوح ليعبر له عن مكنون مشاعره له، فاستهل قوله بأفعال إنجازية معبرة، مثل (نقول– تفعلا)،(نذكر الفضل– تفضلا) فعبّر عمّا يجيش به صدره وما يحمله من فضل لهذا الممدوح بالفعل المضارع الذي يُفيد استمرارية الفعل، فيخبره بأنه إذا كان منَّا الكلامُ فمنكَ الفعل وهذا هو الأصح والأفضل، وإذا كنا نذكر الفضل ونتحدث عنه، فأنت المتفضل بدون كلام.

وفي الأبيات سلسلة من الأفعال الإنجازية مثل: (فكم قد أثرنا من نوالك معدنًا!)، (وكم قد بنينا في ظلالك معقلًا!)، فيتضح لنا هنا فعل كلامي أساسي هو السخاء والكرم المعهودين على ذلك الممدوح وهو ما صرح به أبو تمام في قوله:

وإن رمت أمرًا مدبر الوجه إنني سأترك حظًا في فنائك مقبلا

فهو إن فرح بمفارقة هذه البلدة، سيحزن لما يفقده من أنس بهذا الممدوح والإصابة من فضله.

ثم يختم القصيدة بتعبير آخر، وهو العتاب غير الصريح، فهو لم يستخدم لفظة (العتب) صراحةً، وإنما عبر عن ذلك بأن هذا الممدوح تأخر في قضاء حاجته، ومنعه حياؤه من طلبها مباشرةً، وهذا ما أحوجه إلى طول المقام هناك، فتمثل فعل العتاب في البيت التالي:

على أن إفراطَ الحياءِ استمالني إليك ولمَ أعدِلْ بعرْضَيَ مَعْدِلا

فلو أنه ألحَّ وكشف قناع الحياء لظفر بما أراد، لكنه آثر أن يكرم عرضه ويصونه عن الإلحاح.. وكما هو واضح تضمن البيت فعلًا إنجازيًا يحمل دلالة العتاب غير المباشرة.

خامسًا: أفعال التعهد أو الالتزاميات:

ومن نماذج ذلك النوع قوله:

سَأَحْمَدُ نَصْراً ماحَيِيتُ وإنَّني لأعلمُ أن قد جلَّ نصرٌ عن الحمدِ
تَجلَّى بهِ رُشْدِي وأَثْرَتْ بِه يَدِي وفاض به ثمدي وأورى بهِ زندي
فإن يَكُ أَرْبَى عَفْوُ شُكري عَلى نَدى أُناس فقَدْ أَرْبَى نَدَاهُ على جُهْدِي
ومازَالَ مَنشوراً عَلَيَّ نَوَالهُ وعِنْدِيَ حتَّى قد بَقِيتُ بلا عِنْدي
وَقصَّرَ قَوْلي مِنْ بَعْدِ ما أَرى أقولُ فأشجي أمةً وأنا وحدي
بغيتُ بشعري فاعتلاهُ ببذلهِ فَلا يَبْغِ في شِعْرٍ لهُ أَحَدٌ بَعْدِي (١٩)

في هذه الأبيات فعل كلامي مباشر، تكمن قوتُه الإنجازية في الوعد، حيث وعد المرسل بديمومة حمده لهذا الممدوح وذلك في قوله: "سأحمد نصرًا" فأرفق بالفعل المضارع السين التي تدل على المستقبل مما يُعني أنه سيظل يحمد لهذا الممدوح جميل صنيعه ما عاش في هذه الحياة، وبالرغم من ذلك يرى أنه لا يوفيه حقه، ويتضح ذلك من الفعل الكلامي الذي جاء بصيغة الماضي (جلَّ) الذي يتضمن

السمو والارتقاء، فلقد فاق هذا الممدوح بفعاله كل حمد، ومما يدل على تطبيق هذا الوعد والوفاء به الأفعال التالية: "أربى عفو شكري– قصر قولي– أقولُ فأشجي– بغيت بشعري) وهي أفعال إنجازية تدل على الوفاء بالتعهد الذي جاء في أول الأبيات، وبالرغم من ذلك يرى المرسل نفسه لا زال مُقصرًا في هذا الحمد.

قوة الأفعال الكلامية وضعفها:

إن اللغة ليست بمعزل عن الحقول المعرفية الأخرى، فهي مثلها تتميز بخصائص وسمات تسير وفق أنساق ذات منطقية من التصنيفات؛ وذلك لتحقيق عنصرين مهمين جدًا هما؛ الدقة والعمق اللذان يسهمان في استخراج نتائج واضحة المعالم، ومن أهم هذه التصنيفات هي الثنائيات الضدية التي بها تتميز الأشياء، وتصبح أكثر وضوحا، فكما اتضح في المبحث السابق أن من خصائص الفعل الكلامي الإنجازي ثنائية الفعل المباشر وغير المباشر، أو الحرفي وغير الحرفي ، وثنائية الأدائي والوصفي، فإنه قد برزت ثنائية ثالثة استطاعت أن تسلط الضوء على جزئية مهمة أو بعد جديد من أبعاد الفعل الكلامي، وهي ثنائية القوة والضعف.

إن قصد المتكلم هو الذي يحدد الطريقة التي يتحدث بها، ولقد كان علماؤنا على وعي تام بأن قصد المتكلم الذي تعبر عنه هذه الأفعال هو الذي يحدد الطريقة التي يتحدث بها، ويتغير تعبيره عنه قوة وضعفا بتغير الموقف الكلامي، فالطلب مثلًا غرض أساسي من أغراض المتكلم، لكنه يتفاوت شدة ولينا، فقد يكون أمرًا على سبيل الاستعلاء يوجب الطاعة، وقد يكون التماسا بين متساويين في المنزلة...، وكل ذلك ننظر فيه إلى طبيعة العلاقة بين المتكلم والمخاطب"(٢٠).

ولقد اختلف مفهوم القوة الإنجازية عند كل من أوستين وسيرل، فثمة "خلط بين مفهومي القوة والغرض عند بعض رواد تداولية أفعال الكلام، ومنظريها منذ أوستين حتى اليوم.. فاستخدم جون أوستين مصطلح "القوة" force، وهو يعني ما ينبغي أن يعنيه مصطلح "الغرض" أو الغاية من الفعل الكلامي "وقد وقع في هذا

الخلط الدكتور أحمد المتوكل... وميز آخرون بين القوة الإنجازية حصيلة عناصر عدة، الغرض الإنجازي لها عنصر واحد فقط"[٢١].

ومما سبق يتضح لنا أن كلا من القوة والغرض مكملان للمعنى، والفارق بينهما هو أن القوة درجة، والغرض وظيفة.

وبما أن العلماء استطاعوا أن يميزوا بين درجات القوة الخاصة بالأفعال الإنجازية، فقد تمكنوا من تقسيمها إلى مجموعة من المستويات تحتوي على تدرج في قوى أفعالها، وسنسير هنا وفق التقسيم الذي ارتضاه علي الصراف، والمستوحى من تصنيف جون سيرل الخماسي للأفعال انطلاقًا من الأغراض الرئيسة إلى الأغراض الفرعية، فنراه يقول: "وما أردناه من تقسيم هذه المستويات هو استجلاء القوة ودرجاتها في هذه المستويات المختلفة دون الاكتفاء بمستوى واحد دون غيره، وجديد بالذكر أن جميع النماذج المقدمة في هذه المستويات هي من الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة التي تم جمعها وتقسيمها بحسب تصنيف سيرل الخماسي... وذلك على النحو التالي: (سيتم ترتيب درجات القوة في الأمثلة من الأضعف إلى الأقوى)"[٢٢].

ومن مستويات التمييز:

المستوى الأول: تفاوت درجة الفعل الإنجازي الواحد (بنفس اللفظ عند اختلاف السياق واختلاف المجال الفرعي والرئيس الفعل"[٢٣].

ومثال ذلك الفعل "سر" كما في النموذجين التاليين:

أ- فكِلني إلى شَوقي وسِرْ يَسِر الهَوى إلى حُرُقاتِي بالدُّموع السَّوارب[٢٤].

ب- فيا أيها الساري اسر غير محاذر جنان ظلام أو ردى أنت هائبه[٢٥].

جاءت لفظة "سر" في المثال الأول للتعبير عن الالتماس، فهو يلتمس فيه أن يسير حتى يسير الهوى إلى قلبه فليعجه، وبالرغم من أن الالتماس يندرج ضمن مجال الطلبيات، إلا أنه يأتي بعد الأمر في القوة، والالتماس هنا أضاف بصفته

التعبيرية ضعفا لقوة الفعل في مقابل الفعل "اسر" في المثال الثاني الذي جاء يعبر عن "أمر" حقيقي، فهو يندرج ضمن مجال التوجيهات التي تتفوق في القوة كمجال رئيس على مجال الالتماس الذي يعد أوسط المجالات الفرعية لمجال الطلبيات...

إذًا فخروج الأمر عن دلاليته الأصلية إلى دلالة الالتماس قد ساهم في ضعفه، وجعله أقل درجة من نظيره في المثال الثاني.

الأفعال الكلامية والسياق:

وهو ما يعرف عند البلاغيين بـ"لكل مقام مقال"، وهنا يبرز احتفاء علماؤنا القدماء بالسياق في إخراج المعاني على "أصولها المرادة".

ومن الجدير بالذكر هنا أن السياق ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما:

السياق اللغوي: وهو ما يسبق الكلمة وما يلها من كلمات أخرى، أي أنه الهيئة اللغوية المحيطة بالعنصر اللغوي، بما تشتمل عليه من عناصر لغوية مختلفة تفيد في الكشف عن معني الكلمة أو الجملة.

السياق غير اللغوي: ويسميه الدارسون سياق الحال أو المجريات، ويقصد به الظروف الخارجة عن اللغة المتعلقة بالمقام الذى ترد فيه الكلمة، ويشمل جميع الظروف المحيطة بالحدث اللغوي (سياق الموقف، العصر، نوع القول وجنسه، المتكلم أو المخاطب، المستمع أوالقارئ، العلاقة بين المرسل والمتلقي من حيث: الثقافة، الجنس، العمر، الألفة، الطبقة الاجتماعية، ظروف الجو، إيماءات أو أية إشارات عضوية)، ونلاحظ هنا أن ثمة تشابهًا بين التداوليات من جهة والسياق غير اللغوي من جهة أخرى، وهو تشابه لا يعني التطابق، ذلك أن التداوليات أعطت زخما للسياق بمعاملته سياق مستعمل في اللغة، وليس سياقا بحد ذاته، فالسياق ليس مجرد عرض للمنظور الجملي، وإنما هو الموقف الاجتماعى الذى يتم فيه[٢٦].

إن للسياق دورا مزدوجا، لذا وجب على "محلل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يظهر فيه الخطاب؛ لأنه يؤدى دورا فعالا في تأويل الخطاب، بل كثيرا ما يؤدى ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين(٢٧).

ولقد اشترط "أوستن" لكي ينجح الفعل الكلامي مجموعة من العناصر منها "السياق" فيقول: "إن ما نستعمله من ألفاظ ينبغي أن نرجع في بيان معانيها، ولغاية تأويلها إلى سياق الكلام ومقتضى الحال الذي فيه تبادل التخاطب اللساني، أو وروده فيه على وجه مخصوص"(٢٨).

وتتوفر الكثير من العناصر السياقية في شعر أبي تمام؛ كالمتكلم، والمخاطب، والمكان، والزمان، والحالة الاجتماعية، والثقافية، والحالة النفسية، مما ساعد على الإلمام بمجالات التأويل، وفهم القصد من الخطاب، ومثال ذلك في خطاب أبي تمام التكسبي قوله في قصيدته التي يمدح فيها أحمد ابن المعتصم:

لا تنكروا ضربي لهُ منْ دونهِ مَثَلاً شَرُوداً في النَّدى والبَاسِ
فاللَّهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ والنبْرَاسِ(٢٩)

في هذا الخطاب الشعري فعلان كلاميان يحملان قوتين إنجازيتين، أحدهما طلبي والثاني تقريري؛ فالأول قوله: "لا تنكروا" نهي يحمل دلالة غير مباشرة غرضها التوبيخ لهؤلاء الذين أنكروا عليه مدحه وأعدوه انتقاص في حق الممدوح، ولقد ساعدنا السياق في فهم قصد المتكلم؛ حيث تكشف لنا الرواية أن بعض الحاضرين استنكروا قول أبي تمام قائلين: أتقول هذا للأمير، وهو أكبر قدرا من هؤلاء؟!

وعليه فلقد لعب السياق دورا مهما في فهم ملفوظ المرسل الإنجازي الذي جاء في صيغة فعل توجيهي، ولقد تعرض هذا الملفوظ التوجيهي إلى بعض العوارض التي كسرت حرفيته وجعلته خاضعا لعوامل خارجة عن مفهومه الحرفي، وما أمكن حل هذه المعضلة إلا باللجوء إلى السياق الخارجي.

الفعل التأثيري:

لاشك أن كل قول نتفوه به لمقصد معين نروم به إنجاز شئ ما، والتأثير في شخص ما ممن حولنا، هذا في المطلق العام، وفي الحياة اليومية، أما في المطلق الخاص فإن النتاج الأدبي لاينشؤه صاحبه اعتباطًا، إنما هو نتاج ينشأ في مجتمع خاص يحمل العديد من الأفكار والمشاعر التي تحمل في كينونتها تأثير وتأثر... فعملية الإبداع عملية لا تقوم على ضلع واحد، وإنما هي عملية لا تتم إلا باستحضار أقطاب ثلاث هم: (المرسل، النص، المتلقي)، فالمرسل الذي يحمل بداخله إبداعًا معبقًا بمقاصد بعينها يهدف دومًا لأن يترك مقصده هذا أثرا في المتلقي وإلا فإن رسالته لن تنجح، إذًا فكما أن هناك فعلا، فإنه لابد من رد فعل، وهذا هو دور المتلقي في تلك العملية الإبداعية، وهنا تظهر قيمة الفعل التأثيري حسبما يسميه البعض.

ولقد أطلق عليه البعض (الفعل الناتج عن القول) ويقصد به: "الآثار المترتبة على قول شيء ما"(٣٠).

فقمة البلاغة أن تقول فتترك أثرًا، ويعود عليك هذا الأثر بالنفع سواءًا ماديًا أم معنويًا، وأبو تمام خير من قال فأثَّر، وخير من استحدث فأجاد، وعاد عليه ذلك بأفعال نتجت عن قوله، ويظهر الفعل التأثيري عنده على مستوياته المختلفة، ومن تلك المستويات الفعل التأثيري الصادر عن المتلقي خارج النص، ويُعد هذا المستوى هو الأعم والأكثر شيوعًا، من ذلك ما ورد في الأخبار من قول خالد لأبي تمام عن قصيدته (غدا الملك) يمدح فيها المعتصم والأفشين:

غدا المُلكُ معْمورَ الحرا والمنازلِ ... منور وحف الروضِ عذبُ المناهلِ
بمعتصـمٍ باللهِ أصبح ملجـأ ... معتصـمًا حرزًا لكـــل موائلِ
لقدْ ألبسَ اللهُ الإمــام فضائلًا ... وتابـــع فيــها باللُهى والفواضلِ
فأضـحتْ عطاياه نوازع شردًا ... تســائل في الآفاق عن كـلَّ سائل(٣١)

إلى آخر القصيدة.. فتساءل خالد: كم أخذت بهذه القصيدة؟ فأجابه أبو تمام: ما لم يُروِ الغلة، ولم تسدِّ الخلة، قال: فإني أثيبك عنها، قال: ولمَ ذاك وأنا أبلغ بمدحك؟ قال: لأني آليت لا أسمع شعرًا حسنا مدح به رجل فقصر عن الحق فيه إلا نُبْتُ عنه. قال: فإن كان شعرا قبيحا؟ قال: أنظر فإن كان أخذ شيئا استرجعته"(٣٢).

يظهر لنا من خلال هذه الرواية فعلان تأثيريان، أولهما: جزاء المعتصم لأبي تمام عن هذه القصيدة وإن كان قليلا لا يرو الغلة، ولم يسد الخلة، إلا أنه نتج عن قوله فعل تأثيري من المتلقي (المعتصم). والآخر قول خالد بن يزيد: فإنى أثيبك عنها، فالفعل التأثيري الأول قد أخذ منحى مادي فقط تجسد في إعطاء المعتصم له اليسير من المال، أما الفعل التأثيري الآخر فقد اتخذ سلوكين أحدهما مادي وهو قوله: أثيبك عنها، والسلوك الآخر معنوي، وذلك في قوله: لأني آليت ألا أسمع شعرا حسنا مدح به رجل فقصر عن الحق فيه إلا نبت عنه، وفي قوله هذا فعل تأثيري معنوي يعني أن شعرك حسنا.

هوامـش البحـث:

[1] انظر: التداولية عند العلماء العرب، د.مسعود صحراوي، ص٤٠، دار الطليعة، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٥م، ص٤٠.

[2] تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، عمر بلخير، ط٢، الأمل للطباعة والنشر، يتزي وزو. صـ ١٤٥.

[3]عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، د.عبد السلام عشيرة، أفريقيا الشرق ٢٠٠٦م، صـ٦٢،٦٣.

[4] آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د.محمود أحمد نحلة، د.ط، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م، صـ ٥٩.

[5] التداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس ود. محمد الشيباني، مراجعة د. لطيف زيتوني، ط١، ٢٠٠٣م، دار الطليعة، بيروت لبنان، صـ ٢٩، ٣٠، ٣١.

[6] نظرية أفعال الكلام العامة- كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، د. ط،أفريقيا الشرق، صـ ١٧٤، ١٧٥.

[7] تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، عمر بلخير، الأمل للطباعة والنشر، د.ط، المدينة الجديدة- تيزي وزو، صـ ١٥١.

[8] انظر: اللغة والفعل الكلامي والاتصال- مواقف خاصة بالنظرية اللغوية في القرن العشرين، زيبيلة كريمر، ترجمة: أ.د سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة- مصر، ٢٠١١م، صـ ٩٦.

[9] انظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، صـ ٧٨، ٧٩، ٨٠.

[10] تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، صـ ١٥٤.

[11] التداولية في البحث اللغوي والنقدي، صـ ٤٦.

[12] الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، دراسة نحوية تداولية، د. خالد ميلاد، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، صـ ٥١٤.

[13] انظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، صـ ٨٤.

[14] الديوان (٢/ ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣).

[15] الديوان، (١/ ٢٢٩، ٢٣٢).

[١٦] الديوان، (٢/ ٢٣).

[١٧] الديوان (٣/ ٩٨).

[١٨] الديوان (٣/١١٠، ١١١)

[١٩]الديوان (٢/ ٦٦، ٦٧).

[٢٠] انظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة،صـ١٠٩ .

[٢١] انظر: النص والخطاب والاتصال، د. محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ٢٠١٤م ، د.ط، ص٢٢٦، ٢٢٧.

[٢٢] في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة . دراسة دلالية ومعجم سياقى – ، د.علي محمود حجى الصراف ، مكتبة الآداب ، ٢٠١٠ م ، د.ط، صـ٢٦٩.

[٢٣] في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، صـ٢٦٦.

[٢٤] الديوان، (١/ ٢٠٠).

[٢٥] الديوان، (١/ ٢٢٩).

[٢٦] انظر التداولية في البحث اللغوي والنقدي، بشرى المستاني صـ (١٢٣-١٢٤).

[٢٧] انظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ط١/١٩٩١م، المركز الثقافى العربي، بيروت، لبنان، ص٥٢.

[٢٨]نظرية أفعال الكلام العامة – كيف تنجز الأشياء بالكلام، أوستن، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق ،١٩٩١م ،صـ (١٢٠، ١٢١).

[٢٩] الديوان: (٢/٢٥٠).

[٣٠] التداوليات علم استعمال اللغة، صـ ٥٤.

([٣١]) الديوان (٣/ ٧٩).

[٣٢] الأخبار، صـ ١٦٤.